الشاعر ناقدًا .. أحيانًا .

أحمد الزبيدي .

 لم يكن العرب وحدهم الذين نسبوا الشعر إلى وادي المجانين، وأردفوا الشاعر بلقب المجنون ، فاليونانيون السابقون، بآلاف القصائد، نسبوا الشعر إلى ( الشطح ) تعبيرًا عن اللامعقول. وعدّه الرومانطيقيون ( نبوءة ) وحسبه رامبو رؤيا.. وما بالغ الفرزدق حين فضّل نزع ضرسه على قول بيت شعر ! غير أن هذا التصور الفكري لا يمثل الرؤية المعرفية الكلية عن التكوين الخلقي للفن، فمن المفكرين والنقاد والشعراء من يؤمن أن الفن صناعة، كسائر الحرف والصناعات بدءا من الإغريقيين، الذين حسبوا الفن أحد ميادين المعرفة؛ وكان أول كتاب نقدي عربي وصل إلينا يحثّنا على أن الشعر ( صناعة ) وحرفة يتقنها الصانع بل هو ( علم ) القوم . ألهذا تباهى أبو العتاهية بسرعة استجابة الشعر له، ساخرًا من الوحي والإلهام ؟! ومتى تنازل النقاد عن الجدل والمماحكة حول أيهما أصدق رؤية وأقرب من الحقيقة: المؤمنون بالغيب أم الراسخون في العقل ؟ أعتقد أنهم لم يتنازلوا لبعضهم؛ ولكنهم انشغلوا أكثر بالإنسان بعد أن أعلن نيتشه موت ( الإله ) ثم أعلنت البنيوية موت ( المؤلف ) الذي أحيا ( النص ) لتكون النظريات الأدبية منشغلة به لا بسواه وهكذا أنتجت الشعرية قوانينها الوصفية وتنازلت عن وصاياها المعيارية .

 إن التصورات الفلسفية الخاصّة بالفن والشعر تجريدية ، وكذلك النظريات الأدبية، التي تحاول تفسير الظاهرة الأدبية برؤية كلية وكونية، فتختلف كل نظرية عن سواها بقانونها العام المبلور لخصائص الشعرية، إلّا أن الوحدة القانونية لا تتعارض مع الاختلاف الأسلوبي بين التجارب الإبداعية ذات المرجعيات المختلفة ولا مع التجارب الفردية بين مبدع وآخر داخل الفضاء الثقافي والجمالي المشترك لأنها معنية بوصف التكوين الإنشائي وماهيته اللغوية وكيفية تحول التصورات الفردية وتخيلاتها عبر اللغة إلى بنية جمالية .. ثم يجيء المنهج ليكون الآلية الإجرائية التي يفك بها الناقد خلايا التكوين النصي .. وقد نجد في النقد العربي القديم تصورات علمية وتجريدية في وصف البناء الشعري، كما هي الحال عند حازم القرطاجني، ولكن الرؤية الكلية للقوانين الشعرية تعكس الخصوصية النقدية العربية لماهية الشعر لأن منطلقها كان معياريا خالصا وليس وصفيا تجريديا ومن هنا كان عمود الشعر هو عمود القصيدة العربية وحدها دون سواها. ومما أُثقل على ( العمود ) حمله أنه مازال إلى الآن هو ( المعيار ) الفاعل في الحكم على النص الشعري! فهو مَن يؤكد أن هذه القصيدة تفعيلة تنتمي إلى الحداثة الشعرية، وهذا النص أكثر حداثة كونه ( قصيدة نثر ) فهناك ثابت ( عمود ) ومتحرك ( شعر حر ) وعلى ذكر الحر ما كان لي أن أسميها قصيدة حرة لولا ثبات العمود وقوانينه المقدسة فالحرة هي من تحررت من القيد أو بلغة أقل صرامة تحررت من القانون ذي العمر الطويل .

 ولعلك تسأل عن سبب هيمنة ( المقدس ) على الشاعر ( المتمرد ) ولمَ العمود هو المعيار الثابت ؟ ما معنى قصيدة نثر ؟ ألا يكفي أن أقول ( شعًرا ) بجنس مختلف عن النثر عن المسرح عن الرواية عن المقالة ؟ لماذا قانون الوزن يلاحقني حتى بعد أن تخليت عنه ؟ لست هنا في موضع الاجتراح لمصطلح آخر فهو أمر قد تجاوزه النقد أصلًا بعد إن استقرت المصطلحات إلى ما استقرت عليه من الدلالة على مفاهيمها ومضامينها. ثم لنسأل سؤالا أكثر عمقا: هل تغيرت المفاهيم الشعرية\_ حقًا\_ لكي نفتّش عن مصطلح جديد يتخلى كليا عن التناسل مع العمود أو لا يُذكر به أصلا؟...

 ومع كل تحول نقدي، يشهد النقد العربي بزوغًا جدليا حول الأشكال الشعرية، وأساليبها ويعود الناقد من جديد، يحسب بأصابعه النقدية أركان العمود الشعرية، ليجدها دائما سبعة سمانا ومع تحول النقد العربي الحديث من الجمالية إلى الثقافية عاد الجدل إلى العمود، والتفتيش عنه بمنظار النسق، بوصفه بنية حركية متاحة لكل من يريد استعمالها، حسب توصيف فوكو . ومن ثم ما عادت المصطلحات الدالة على الشكل الشعري كفيلة بإجازته التصنيفية؛ فليس كل قصيدة تفعيلة مجازة من الحداثة، وليس كل قصيدة نثرية خالية الوفاض من العمودية، إذ ليس للنقد اهتمام بالجملة المجازية وإنما بالجملة الثقافية . وصحيح أن المناهج النصية ذات المرجعيات اللسانية قد تناولت هذه الظاهرة، وأشار الكثير من النقاد حول عدم كفاية الشكل والتلاعب بالتفعيلة ليمنح النص إجازة شكلية جديدة؛ غير أن هذا الطرح النقدي لم يكن هو الشاغل الأكبر كما أصبح عليه مع الدراسات الثقافية والنقد الثقافيح لأن القصيدة العمودية أصبحت مرادفا لمصطلحات من مثل : البداوة والفحولة والذكورية .. وكأن النقد الثقافي ألبس القصيدة العمودية مسؤولية التجسيد للثقافة البدوية.

 وما شأن الشاعر، الذي أنا في صدد تقديم مختاراته الشعرية، ما شأنه بقديم النقد وحديثه واختلاف الرؤى الشعرية؟ أقول : إن تجربة الشاعر حبيب السامر المختصة بقصيدة النثر تُرغمني على الحديث الواضح عنها، إذ إنها قصيدة أحكمت إطارها عن تسرب العمود وأنساقه إلى مفاصلها، فلا احتمال لانتظام النص على وفق القوانين العروضية الخليلية كما نجدها عند كثير من الشعراء، ولا فحولة بدوية تختبئ وراء الحمولة الثقافية .. هي معبّأة لتكون قصيدة نثر. فكادت أن تكون ( قصيدة واحدة ). ولا أعتقد أن حبيب السامر شاغل باله كثيرًا بمسألة حماية النص مما ليس منتميا له إذ إنها رؤية المتلقي التي قد لا يؤمن بها المتلقي الثاني والثالث والرابع .. ولكن من حقي أن أميل إلى ذوقي : فـ( الذوق السليم إنما هو ذوقي أنا ) كما يقول إميل فاكي . ولكن ليس من المنطق ولا المعقول أن يكون الانطباع هو المحفّز الرئيس لفتح شهية قراءة النص، وإلا كان أمري لا يختلف عن المار في الطريق أو كأي هواية عابرة، فالمقصود بالذوق هو ردة الفعل واستجابتها الجمالية لفعل جمالي خاص والمتكئة على أسس علمية ومنهجية ذات تراكم معرفي وجمالي متشبّع في الذات المتلقية بحيث تكون القراءة إنتاجًا إبداعيا يعيد صهر النص برؤية خاصة وكما قال بركسون : ( غاية الفن أن يطبع فينا المشاعر، أكثر من أن يجعلنا نعبر عنها ) ولا يمكن أن يتحقق التماهي من دون التأثير ذي النتاج الفردي المنسجم مع الرؤية الفردية وانعكاساتها الذوقية وهذا ما يقوم عليه الفن لأنه الـ ( أنا ) بينما العلم هو الـ ( نحن ) حسب توصيف كلود برنار .

 ما بين يديك أيها ( المتلقي ) الكريم مختارات شعرية بثلاث وستين قصيدة للشاعر حبيب السامر؛ و لا تسألني مَنْ القائم على الاختيار فأنا \_ شخصيًا \_ لا أعرف . هل تفاجأت ؟ نعم لا أعرف فالشاعر مازال قيد الحب؛ حسب عنوان إحدى مجاميعه الشعرية ووصفه لنفسه ( على قيد الحب ) ويواصل نتاجه الشعري وهو المسؤول عنه؛ وهي ليست مختارات من زمن قديم حتى أبحث عن محققها ومعدّها؛ وإنما هي مبادرة من الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق بإصدار مختارات لنخبة من الشعراء فكان السامر أحدهم، ولنتخيل أن صاحب النصوص هو من اختارها لهذا الكتاب . فهنا تضاعفت مسؤولية الكاتب إلى القارئ؛ والمؤلف إلى المتلقي والقائل إلى السامع، والشاعر إلى الناقد؛ فساعدك الله أيها الشاعر وأنت تتكفل عنا مسؤولية التلقي والتذوق والنقد وتطبع فينا المشاعر .

 ويبدو أن الشاعر قد وعى جيدًا مسؤوليته ووظيفته، كمعدّ مكلف لاختيار نصوص معينة لتجربة واحدة؛ وأدرك أن ( نكران الذات ) قد حلّ أوانه ؛ فعليه أن يسمع لا يتكلم، ويقرأ لا يكتب ويتلقى لا يؤلف؛ عليه أن يتحلى بشيء من أخلاق النقد وعليه أن يؤول لا يقول .. لا يمكن لحبيب السامر أن يكون خارقًا للمنطق فيكتب كل هذه القصائد دفعة واحدة، فما صنعها شاعر من قبل، ولا من بعد، ولذا كان حبيب ناقدًا انطباعيا لا غير؛ يفتّش في مجاميع الشاعر ليختار منها قصائد مختلفة ومتنوعة تحاول أن تقدم مشهدا شاملا لموضوعاته الشعرية وأساليبها المتنوعة في مستوياتها وأدائها .. فليست المهمة سهلة ولا يمكن أن يخون الأمانة؛ لأن المتلقي في عنقه ووثق به، وحمّله مسؤولية الإنصاف في الاختيار . ولكن هل نجح الناقد حبيب السامر في مهمته ؟ أعتقد أنه استطاع أن يختار لنا باقة من القصائد الكثيرة المؤرشفة لقلّة التعددية الأسلوبية والموضوعية .. دعني أوضح لك المقصود بالكثرة والقلّة .

 لنتفق \_ سلفًا \_ أن العدد، عمرهن ما كان معيارًا للجودة ؛ وما عليك بشروط ابن سلام الجمحي في اختياراته ( طبقاته ) حين جعل الكثرة معيارا. فمشروعه توثيقي أكثر مما هو معياري . وإنه جعل الجودة رديفةً للكثرة ومهيمنة عليها .. وليس المقصود بالقلة منقصة أو ضعفا وإنما أعني التقارب الأسلوبي المصحوب بتقارب موضوعي بما يتلاءم مع وحدة النوع الشعري . فقصائده\_ في الأعم الأغلب \_ غنائية لا تكلف القارئ عناء التأويل ولا تشغل باله بتأمل طويل فكل ما عليه أن يُصغي للسامر، وهو يتسامر معه عبر اللغة الشعرية الهادئة، ذات النغم البصراوي.. نعم الشاعر يشبه أقرانه البصريين، الذين يتغنّون ببصرتهم، وأماكنها ذات الأيقونات التاريخية، والمحلية، كنوع من التماهي مع ( الهوية ) باتجاهاتها المختلفة : تعاقبيا وتزامنيا . ليست أي هوية إنها مصدر للتباهي والتفاخر. وها هو حبيب السامر واحد من ( المصورين ) لمدينتهم شعرا .. الساردين \_ كذلك \_ يخطون مدينتهم سردا، كمحمد خضير ومحمود عبد الوهاب ولؤي حمزة عباس وياسين شامل .. والكثير الكثير مما لا يسمح المقام لذكرهم جميعًا .

 وعلى الرغم من هيمنة الأسلوب الغنائي \_ كما مر ذكره \_ على منجز السامر فقد تجد قصائد ذات نزعة سردية أو درامية كقصيدة : ( عصا الخرنوب ، و غربال ، و ملاذ القوافل ، و المذيعة الجديدة ، و حليب الدمى ، و شهرزاد تخرج من عزلتها .. ) وعن البصرة : الهوية والمدينة والفضاء والزمكان اختار السامر ( ليل التنومة ، حارس اخر الليل ، و الجسر الأسود ، وطيبون ، و الداكير ... ) ولا يبخل السامر على اختيار نصوص تؤرشف تجربته الواقعية في مدن قد أحبها كـ ( باب توما ، وكاريبو ، و الروشة وقارئة الكف ) كما تتطعم المختارات بقصائد حب وغزل مثل ( الحب امرأة واحدة ، ولكِ.. ما تبقى من عطر الوسادة ، بوصلة الياسمين .. ) .

 وماذا بعد ؟ فقد وجدت الشاعر حبيب السامر بكامل قيافته الأسلوبية بين دفتي مختاراته الشعرية ولم أتعب نفسي بالبحث عن ظلاله المرجعية لإيماني بأن القصيدة لا يكتبها سوى شاعرها بغض النظر عن مستواها الأسلوبي وبغض النظر عن ( اختيارها ) .